مكانة المرأة في الإسلام والوقت الحاضر السيدة زبيدة بنت جعفر أنموذجاً (103-116)

أنيسة معزوزي*[1]

[1]مخبر الأبحاث في التراث الفكري والأدبي بالجزائر باتنة1

Women's Place in Islam and Present Day Ms. Zubaydah Bint Jafar Anzar

[1]Anissa Maàzouzi, Research Informant in the Intellectual and Literary Heritage of Algeria, Batna1, anissa.mazouzi@univ-batna.dz

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على مكانة المرأة،وإبراز أهميتها في التراث العربي عبر العصور،باعتبارها الركيزة الأساسية لبناء الأسرة والمجتمع،وقيام الحضارات وازدهار البلاد، وسوف نقف عند السيدة من سيدات العرب التي كرست حياتها خدمة للإسلام والمسلمين،وهي السيدة زبيدة بنت جعفر زوجة هارون الرشيد،التي تعد من أعظم النساء دينا وخلقا وفكرا وثقافة،وهي من النساء الصالحات الكريمات التي تسعى لخدمة الغير وسعادتهم، فهي ترغب في فعل الخير والبر والإحسان.

وقد توصلت هذه الدارسة إلى مجموعة من النتائج أهمها كان للسيدة زبيدة بنت جعفر دورا بارزا في خدمة الحجاج، وذلك من خلال حفرها للبرك والآبار والعيون،وأنفقت كامل مالها لإتمام هذا المشروع، ومساعدتها للمحتاجين والمساكين والإنفاق عليهم رغبة لوجه الله تعالى،وإرضائه، وتقديم يد العون لمن أراد المساعدة من دون تردد، وكانت زبيدة معروفة بالخير والأفضال على أهل العلم والبر بالفقراء، إضافة إلى التزامها للأمور الدين الإسلامي.

كلمات مفتاحية: مكانة؛المرأة؛الإسلام؛الوقت الحاضر؛السيدة زبيدة.

Abstract:

This study aims to identify the status of women and highlight their importance in Arab heritage throughout the ages. As the fundamental pillar of the building of family and society, the establishment of civilizations and the prosperity of the country, we will stand with the lady of the Arab women who dedicated her life to the service of Islam and Muslims s wife, Aaron Al-Rasheed, who is one of the greatest women in religion, creativity, thought and culture And she is a good and generous woman who seeks to serve others and their happiness, she wishes to do good, righteousness and charity.

This study has produced a series of findings: Ms. Zubaida bint Jafar played a prominent role in the service of pilgrims by digging ponds, wells and eyes, and spent her entire money to complete this project. Help the needy and the poor and spend on them in desire of God's face and satisfaction. Helping those who want help without hesitation. Zubaydah was well known and virtuous for the people of science and righteousness of the poor. Its commitment to Islamic religious matters.

Keywords: Status; Women; Islam; Time; Present; Zubaydah.

*المؤلف المراسل

مقدمة:

منذ درج الإنسان على هذه الأرض ومشكلة المرأة بين مد وجزر، وأخذ وعطاء باعتبارها النصف الثاني المكمل لحياة الفرد في المجتمع الذي يعيش فيه، سواء كان هذا المجتمع بدائيا أو متطورا أو تقدميا أو رجعيا.

إن المرأة على مر الأجيال والأزمان هي العنصر الضعيف دائما وأبدا اتجاه الرجل،فإنها دائما تخضع لإرادته ومشيئته حيثما أراد هو لا حيثما تريد هي،وهذه القسوة من الزوج والأب والأم والأخ وكل ما هو يمتلكها جعلاها تكبت في داخل أعماقها عما يجول بفكرها من ألم وعذاب لا يضاهيه آلام وعذاب حيوانات الغاب،وقسوة الأقدار التي هيأتها لأن تكون الأم والابنة والخادمة لهم جمعيا دون أن تنبث بأية كلمة،وتنفث عما يجول بخاطرها ومشاعرها من أحاسيس يعجز اللسان عن الإفصاح.

فالمرأة هي نصف المجتمع و ركنه وعماده الذي تقوم عليه الأمجاد والحضارات،فكما يقال:وراء كل رجل عظيم امرأة،وجاء الإسلام ليعطي للمرأة حقوقها وكرامتها،فانخرطت في ميادين الحياة لتقدم الخير الكثير والإنجازات العظيمة التي تنفع بها المجتمع وتصلح من شأنه،ففي هذا المقال نقدم نموذجا رائعا وواقعا حيا لامرأة عاشت لأجل الغير تقدم الكثير والكثير لتحقق الخير والنفع للإسلام والمسلمين،حديثنا عن ابنة عم الرسول صلى الله عليه وسلم السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد.

أهداف الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف التالية:

- الوقوف على أهمية المرأة عبر العصور المختلفة.
- التعرف على السيدة زبيدة بنت جعفر.
- إبراز أهم أعمالها وأثارها.
- إدراك مكانتها العلمية.

أهمية الدارسة:

تعد السيدة زبيدة بنت جعفر بن عبد الله بن أبي جعفر المنصور زوجة هارون الرشيد من أحسن النساء فعلا في أيام الرشيد،لما أحدثته من بناء دور السبيل بمكة واتخاذ المصانع بها،وهذا جعل الناس يقدرونها والمأمون يأخذ بآرائها،لذلك كانت قدوة يقتدي بها في عهد المأمون.

تطهر أهمية هذه الدارسة في كونها تعالج قضية في غاية الأهمية تتعلق بإبراز مكانة السيدة زبيدة بنت جعفر ودورها في خدمة التراث،فقيمة هذه الدارسة تبدو من خلال تسليط الضوء على رؤى العلماء وكيفية تصورهم لسيدة زبيدة من خلال إتباعهم لأعمالها.

مشكلة البحث:

إن المشكلة التي تطرح نفسها في هذا البحث هي أعمال وأثار السيدة زبيدة بنت جعفر وإبراز مكانتها، وعليه جاءت إشكالية البحث كالتالي:كيف ساهمت السيدة زبيدة في بناء الوطن وازدهاره؟وما هي خدمة التي قدمتها لإسلام والمسلمين؟

وهذا السؤال يتفرع إلى أسئلة فرعية وهي كالتالي:

- ✓ من هي السيدة زبيدة بنت جعفر؟
- ✓ ما هي أهم أعمالها ومنجزاتها؟
- ✓ وفيما تكمن مكانتها العلمية؟
- ✓ كيف كانت الحركة الأدبية والعلمية في زمانها؟

منهج الدارسة:

اعتمدت ورقة البحث هذه على المنهج الوصفي التحليلي الكمي لأهم الدراسات التي تبحث عن مكانة السيدة زبيدة بنت جعفر واستخلاص أهم أعمالها وآرائها التي وجب الحرص عليها، والعمل بها.

الدراسات السابقة:

من بين الدراسات التي تشترك مع الموضوع الذي أشتغل عليه هي كآتي:

1-أحمد علي سليمان عبد الرحيم،سلسلة النقد الأسلوبي (السيرة الذاتية) سيرة زبيدة بنت جعفر،ط1.

في هذا الكتاب تحدث عن السيرة الذاتية للأميرة زبيدة بنت جعفر،ثم بين بأنها أدبية وشاعرة متمكنة في الشعر،كما أنه وقف على الحركة الأدبية والعلمية في زمانها،وفي أخير أبرز طموحات زبيدة مثل غرس الأشجار،والإنفاق في أوجه الخير،وإطعام الطعام وسقي الماء.

2-أحمد علي سليمان عبد الرحيم،تحية شعرية للأميرة زبيدة بنت جعفر،ديوان السليمانيات،ط1.

تناول في هذا الكتاب الشعر يحي الأميرة بنت جعفر ويتحدى الواقع بطموحها.

3-حمد فهد حمد العازمي، مجهودات السيدة زبيدة أم جعفر في سقاية الحجاج وتمهيد الطرق إلى بيت الحرام، مجلة بحوث الشرق الأوسط،العدد السبعون،ديسمبر2021م.

تحدث في هذا المقال عن أعمال السيدة زبيدة العمرانية في منطقة الحرمين الشريفين،ثم بين كيف قامت السيدة زبيدة بحفر الآبار والبرك والعيون.

4–نزار نجار،عين زبيدة عمل إنساني نبيل قامت به امرأة من أجل المحتاجين وأبناء السبيل، أدباء اقتصاديون.

في هذا المقال بدأ حديثه بتمهيد طفيف حول السيدة زبيدة وأثارها،ثم أبرز عين زبيدة وأهم قنواتها.

نستنتج مما سبق أن هذه الدراسات السابقة تتمحور مع الموضوع الذي سوف أتناوله" **مكانة المرأة في الإسلام والوقت الحاضر السيدة زبيدة بنت جعفر أنموذجا**".

المبحث الأول

ميزة المرأة ومكانتها عبر العصور

المطلب الأول

المرأة وميزتها

جاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر تحت لفظة امرأة ما يلي:

لا تختلف المرأة عن الرجل باختلاف شكل أعضاء التناسل في كليهما فقط،نعم لا شك في أن تلك الأعضاء هي أكبر الاختلافات التي بينها،ولكن كل الأعضاء الأخرى حتى التي تظهر أنها أكثر تشابها فيما بينها ترينا تغايرا خاصا[1]، ثم أخذت تقارن بين كل الأعضاء مقارنة علمية مبنية على الامتحان التشريحي الدقيق حتى قالت:"إن تركيبها الجثماني يقرب من تركيب الطفل،ولذلك تراها مثله ذات حساسية حادة جدا وتتأثر بغاية السهولة وبالإحساسات المختلفة كالفرح والألم والخوف،وحيث إن هذه المؤثرات تؤثر على تصورها بدون أن تكون مصحوبة بتعقل،فلذلك تراها لا تستمر لديها إلا قليلا،ومن هنا صارت المرأة معرضة لعدم الثبات[2].

كما جاء في المجلد نفسه:"يعلم الناس أجمع أن المرأة قد وهب الله فطرتها حبا حادا لكل شيء لامع ولكل ما يزينها ويزيد من جمالها،وهذا الحب في ذاته يظهر أنه شرعي محض،لأن كل شيء فيها يجعلها محتاجة للتزين وليس ذلك فقط بالنسبة لتركيبها الطبيعي ولكن بالنسبة لوظيفتها الاجتماعية[3].

إن المرأة بيتها مسجدها تاجها حجابها الشرف جمالها الكمال عفتها أمتها مرآتها أبوها عنوانها،قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم:"يأتي زمان على الناس نسائهم عاريات كاسيات وفي الفتن داخلات،وعن الدين خارجات فعليهن لعنة الله والناس أجمعين وفي النار داخلات.[4]فهذه رواية تحذر المرأة من خطر مستقبلها،فالمرأة عندنا في الإسلام أرقى أنثى في العالم ثقافة ودينا وأرقى مرتبة ورفعة ،والدليل على ذلك أن المرأة في الإسلام يسجد لها التاريخ وينطق لها فصاحة اللسان ويمعن لها التفسير والبيان.

المطلب الثاني

مكانة المرأة عبر العصور

1-مكانة المرأة في العصور القديمة:

أ-المرأة الحيثية:

عند الحثيين كان باستطاعة من يتزوج ابنة الملك أن يعتلي سدة العرش، إذا لم يكن للملك ولد من الزوجة الأولى أو الثانية، وهذا ينطبق على العائلة المالكة والإشراف كما أنهم سمحوا للعبيد بشراء امرأة حرة،وقد علق مورتيكات بقوله:"إنها لثورة اجتماعية جارية في طريق التطور"[5].

ومن التعابير التي كان يدل بها على علاقات الزوجية أيسر كما أن وضع الزوج كان متفوقا بالنسبة من المرأة الأمانة الزوجية.

وإذا أمسك رجل بامرأة في الجبل أو في الريف اعتبر هذا العمل منه جرما وأعدم ولا جناح عليها إذا لم يكن باستطاعتها الاستغاثة،وإذا تم هذا في البيت أعدمت هي،وإذا أمسك بها زوجها وقتلها فلا جناح عليه،وإذا طلب بعدم إعدامها وعفي عنها وعن شريكها لا مانع في ذلك،ولكن يوشم على رأسه[6].

ب-المرأة في الجاهلية:

إن المرأة العربية في العصر الجاهلي كانت تستقبل ضيوف زوجها أو أخيها أو أسرتها في بيتها وتجير من يلوذ بها من الرجال،ومن النساء من كانت تستقبل خطيبها أو الراغب في الزواج منها فتحادثه وتناقشه لتتبين شخصيته،وتتعرف على ذكائه وفطنته بدون قيود.

واضح أن المرأة في العصر الجاهلي كانت تتمتع ببعض الحرية الناتجة عن الثقة في سلوكها الاجتماعي،مما خولها حق المساهمة في وجوه النشاط الفكري والعقلي والأدبي والشعري،وحتى المساهمة في النشاطات الحربية والعسكرية التي جسدت مدى شجاعتها ورجولتها في الحروب والمعارك القبلية والغزوات،فخاضت غمار المعارك واكتوت بلهيبها ،فكان منهن من يلحقن بأبناء القبيلة يحرضنهم على القتال وخوض المعارك،ويبعثن فيهم النخوة والحمية حتى لا تخور عزائمهم،ويقدمن لهم الماء والطعام ويعالجن المصابين والجرحى[7].

لكن في نفس الوقت كانت المرأة تفقد بعض حريتها وكثير من حقوقها،كالإرث مثلا،وليس لها على زوجها أي حق شرعي،باعتبار أن الحقوق الشرعية للمرأة لم تكن منسوبة ولا معروفة في ذلك العصر إلا انطلاقا من بعض التقاليد والعادات التي كانت معترف بها في ذلك الوقت،عند بعض القبائل والعشائر حسب البيئة التي كانوا يعيشون فيها،ويبدو أن المرأة العربية في الجاهلية كانت تعاني من وطأة القيود التي كانت تفرضها عليها بعض التقاليد والعادات الهمجية،لذلك أخذت تسوء حالتها من سيء إلى أسوأ في بعض أنحاء الجزيرة مما أدى تدني قيمتها.

وكانت المرأة في المجتمع العربي قبل الإسلام لا تستطيع أن تمنع الحمى وتحمي الذمار وهي هدف العدو إذا أغار،يقصدن أول ما يقصد فيكون السبي الذي يورث القبيلة القهر والذل ويجللها بالعار،لذلك كرهوا أن تولد لهم الأنثى ،وهي كراهة تتمثل في صور شتى أهونها الغيط المكبوت وأقساها الوأد[8].

ولقد سجل القرآن الكريم وصفا لعادة وأد الأنثى قال الله تعالى:"إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون[9].

كما وعي بها ديوان الشعر العربي،ذلك النشيد الحزين لأم هجرها زوجها حين ولدت له أنثى:

ما لأبي حمزة لا يأتينا
غضبان ألا نلد البنينا
تا الله ما ذلك في أيدينا[10]

2- مكانة المرأة في العصور الوسطى:

1-المرأة في الإسلام:

أعلن الإسلام بأن الله عزوجل خلق الرجل والمرأة من روح واحدة ومن أصل مشترك،وقد أشار النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى إن الرجل والمرأة جزئين من جسد واحد لقوله تعالى": يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا".[11]وكذلك قوله تعالى:"والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمت الله هم يكفرون"[12].

وبهذا المعنى رد الإسلام إلى المرأة اعتبارها فبدلا من جحودهم لها وإنكارهم بأنها روح مثلهم.

لذلك اعتبر الإسلام أن المرأة كائنا مستقلا وليست مجرد تابع للرجل،كما أنه أضفى عليها الحقوق والواجبات ما لم تحض به المرأة إلا في العصور الحديثة،لها حق التصرف فيها تملك بدون وساطة،كما أقر لها الشرع الحق أن تتولى هي أمر الوصاية على القاصرين[13].

وينظر الإسلام إلى المرأة بما هي أنثى وينظم أنوثتها ويوجهها، وينظر في مقابل ذلك إلى الرجل باعتباره ذكرا، فيفرض على كل منهما من الواجبات، ويعطي لكل منهما الحقوق، وما يتفق مع طبيعته، وفقا لمبدأ تقسيم العمل بين أفراد المجتمع"[14].

وأهم ما يميز الإسلام في موقفه من المرأة عن غيره من المبادئ النظم التي عاشت قبله واستجدت بعده هو نظرية الإنسانية إلى الرجل والمرأة على السواء في كل تشريعاته ومفاهيمه.

فالإسلام اهتم بالمرأة وأولى عناية فائقة بها، لذلك حررها من القيود المجتمع الجاهلي لتكون عضوا نافعا في المجتمع الإسلامي، لذلك سوى الإسلام بين الرجل والمرأة في الحقوق المدنية،فالمرأة في الإسلام شخصيتها المدنية الكاملة ولا يجوز لزوجها أن يأخذ من مالها،والدليل على ذلك قوله تعالى:"وإن أدرتم استبدال زوج مكان زوج وأتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا"[15].

وكان أول عهد الإسلام أعطى للمرأة حريتها في مشاركتها للرجل شأن ما كانت عليه من قبل، تعمل وفق تقاليد الصحراء وتعاليم القرآن وتوجيهات السنة، وتشارك وتساهم في المناسبات العامة.

ولقد وضع الإسلام حدا للمأساة البشرية الفاجعة التي جاوزت في بشاعتها أقصى المدى وأول ما نزل من آياته تعالى في الوأد قوله تعالى منذرا بيوم الهول الأكبر:"وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت"[16].

قرر الإسلام على المرأة أن تؤدي واجبها نحو بيتها ولا يكلفها بما لا طاقة لها به،وأعطى مكانة فريدة عن غيرها في المجتمعات الأخرى،فالزوج على سبيل المثال قدسه الإسلام وطلب العدل فيه،وإن كانت الزوجات أكثر من واحدة قال الله تعالى:"وإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة"[17]، فهذه الآية صرحت على الزوج أنه إذا لا يمكن أن يعدل بين زوجاته، أن يتزوج بواحدة فقط.

كانت المرأة العربية تشارك في مجالات الحياة المختلفة،لذلك كان العرب يشركون النساء معهم في الحروب ويعطوهن واجب مؤسسات الهلال أو الصليب الأحمر،فقد كن في معركة القادسية يتسلمن الجرحى من حاملي النقالات ويقمن بتمريضهم ومداواتهم في العذيب الذي كان بعيدا عن المعركة وتتوفر فيه المياه،وتتجلى شجاعة المرأة العربية في هذه المعركة بقصة الخنساء تماضر بنت عمرو بن الشريد السليمية،الشاعرة المشهورة التي شاركت في معركة القادسية[18].

فالإسلام في سمو آدابه أن يجعل المرأة مثالية لبناء الأمم،ورجوع المرأة إلى حقها في رجاحة العقل وسموا الإيمان وكرم الأخلاق، بحيث استطاعت المرأة أن تحاج سلطان قومه وهو عمر،وهو يخطب في المسلمين وينهاهم في المغالاة.

والمرأة العربية شغلت مكانا بارزا في المجتمع، ولعل ما قمن به نساء آل أبي سفيان في معركة اليرموك،لخير دليل على ذلك ناهيك عن البطلة خولة بنت الأزور التي تقف شامخا في هذا السبيل.

2–المرأة في العهد العباسي:

لقد بزغ في هذا العصر نشاط نساء الطبقة الحاكمة،وكان للمرأة في القصر نفوذ واسع في عهد الهادي والمهدي والرشيد مثل الخيزران قاتلة الهادي وموصلة الرشيد إلى العرش،وكذا زبيدة أم الأمين التي كانت امرأة موهوبة وشاعرة ملهمة وكثيرا ما كانت ترسل رسائلها مفرغة بأبيات شعرية إلى الرشيد[19].

كانت المرأة في هذا العصر والعصر الذي يليه امرأتان: ملكة ووصيفة،تقول نابيا آبوت عن الخيزران وزبيدة:"وأحس هارون الرشيد بتأثير هاتين المرأتين في تاريخه وحياته فقد كانت رغبة الخيزران الملحة في السلطان والحكم وظاهرة المعالم في عهدي والده وشقيقه،أما زبيدة فإن تأثيرها اللطيف طال بعده إلى عهد ولديه الأمين والمأمون،ولهذا نرى أن تاريخ هاتين الملكتين قد كشف لنا عن أخلاق ومصاير خمسة من الخلفاء العباسيين[20].

ويقول وستنفلد عن زبيدة: " إنها كانت تسيطر على هارون الرشيد فلا يصدر أمرا إلا عن أمرها،إن أكثر المؤرخين العرب يؤكدون ذكاءها وكرمها وعلو أخلاقها،كما يصفون قصرها وحياتها التي آية من آيات الروعة والبذخ والإسراف،وأحب أن أسجل هنا مقطوعة شعرية لها لفتت نظري،أرسلتها إلى المأمون عقب دخول طاهر بن الحسين بغداد وقتله الأمين،ففي هذه الأبيات ما ينم عن أصالة شخصيتها ومدى تأثيرها على الرجال ويدل على الدلال الذي نماه في نفسها:

هارون الرشيد فقد كتبت إلى المأمون تقول:

كتبت وعيني تستهل دموعها إليك ابن عمي مع جفوني ومحجري

أصبت بأدنى الناس منك قرابة ومازال عن كبدي فقل تصبري[21]

فالمرأة العربية كانت في عهد الرشيد تذهب إلى القتال على صهوات الجياد وتقود الجيوش، وفي عهد المأمون كانت تناظر الرجل في الثقافة وتشترك في نظم القصائد مما كان له أبعد الأثر في حياة المجتمع ،وقد ظلت المرأة العربية حتى خلافة المتوكل عاشر الخلفاء العباسيين تنعم بوافر من الحرية.

3– مكانة المرأة في العصر الحديث:

1–نظرة إلى المرأة الشرقية في مطلع القرن العشرين:

إن تاريخ المرأة في هذه الفترة من عهد الإمبراطورية العثمانية يقول:"إن تاريخ المرأة مرتبطا بتاريخ الرجل،وبتعبير آخر كان الرجل متبوعا والمرأة تابعة،وهذه العلاقة السببية تفسر كثيرا من واقع المرأة في

الإمبراطوريــة العثمانيــة الــتي كانــت تمتــد مــن أبــواب فيينــا في أوروبا حــتى المحــيط الهنــدي جنــوب الجزيــرة العربية،وحتى حدود مراكش الواقعة على المحيط الأطلسي،في غرب إفريقيا[22].

لقـد كـان الرجـل في هـذه البقعـة الـذي لم يبصـر ذبالـة واحـدة مـن الحضـارة الصـناعية،يقدس أسـطورة الأرض المعطـاء والمـرأة الأم،كانـت الأنثـى الـتي تغـزل الصـوف وتنسـج الثـوب،ولا تغسـل إلا يـديها .... وتعـيش في عزلتها، وتلقى القتل إذا أخلت بشرف الأسرة، أو أظهرت بعض التمرد على تقاليد بيئتها.

2-المرأة العربية بين التأييد والمعارضة:

فتحـت أول مدرسـة للبنـات في عالمنـا العـربي أنشـأت في عهـد إسماعيـل باشـا في مصـر،وقد نظـر الـرأي العـام آنـذاك نظـرة في غايـة السـوء إلى هـذا العمـل فكـان السـبب في ارتفـاع صـوت الطهطـاوي مـدافعا داعيـا إلى تعليم البنات[23].

وفي سـوريا ولبنـان اهـتم بطـرس البسـتاني المتـوفى سـنة 1883م بهـذا الأمر،وكـان ابنـه سـليم مـن أشـد أنصـار المـرأة ولنـا في شـهرة خطبتـه الـتي كـان موضـوعها "أن الـتي تهـز السـرير بيسـراها تهـز الأرض بيمناهـا"،والتي ختمهـا قـائلا :إن النسـاء أسـاس البنـاء التمـدني،ولا يشـاد بنيانـه إلا علـى ذلـك والشـعب الـذي يحـاول ذكـوره التقدم دون النساء،كالرجل الذي يحاول السفر برجل واحدة خير دليل على ذلك .

ومـا أن انبثـق القـرن العشـرين حـتى دوى في مصـر صـوت هـز العـالم العـربي مـن أقصـاه إلى أقصـاه،وهو صـوت قاسـم أمـين يـدعو أبنـاء وطنـه إلى وجـوب تعلـيم الفتـاة،وتخفيف الحجـاب أو رفعـه وتنظـيم الـزواج والطـلاق ومـنح المـرأة حقوقهـا الاجتماعيـة وحريتهـا الطبيعيـة مسـتندا في ذلـك إلى الآيات القرآنيـة والأحاديـث النبوية محاولا تفسيرها بما يلائم روح العصر[24].

3-مكانة المرأة بين البيت والعمل:

أ-في البيت:

يمكـن القـول أن مـن يـدافع عـن بقـاء المـرأة في المنزل،ويـرى فيهـا شـأنا داخليـا خاصـا،هم علـى الأغلـب رجـال مـن عمـر الشـباب المتـزوجين وغـير المتـزوجين ومتـدين الثقافـة وذوي الاتجاهـات الدينيـة الظـاهرة ومحـدودي الدخل،والمتـدينات مـن النسـاء المتزوجـات والحـاملات لشـهادة الثانويـة العامـة أو مـا دونهـا،وهي فئـات يمكـن تصنيفها على أنها الأكثر استبطانا وامتثالا لقيم وتعاليم ومقولات المنظومة التقليدية من الثقافة[25].

وقـد لمسـنا أن النسـاء مـن هـذه الفئـة هـن الأكثـر امتثـالا وتطيعـا بمقـولات التفـوق الطبيعـي للرجـال وحقهـم بالقوامة على وجهيها المتمثلان بحق الرجل بالسلطة على المرأة أو بمسؤوليتهم الكاملة عن المرأة ثانيا.

ب- في العمل:

يؤيـد الكثـير مـن الرجـال والنسـاء عمـل المـرأة خـارج المنزل،وهـؤلاء هـم الفئـة الغالبـة علـى مجتمـع الدارسـة،وهم الفئـة الـتي كـان مـن الصـعب حصـرها في طبقـة معينـة أو مسـتوى عمـري أو تعليمـي،إذ أنهـم يتوزعـون علـى طيـف واسـع مـن الأعمـار والأديان والمسـتويات التعليميـة والطبقات،وتكـاد تـتراوح مـواقفهم بـين مؤيـد نـزولا عنـد رغبـة الزوجـة الـتي تلـح علـى العمـل وبـين متسـامح،وفي نفـس الوقـت يتعفـف عـن أخـذ الأمـوال مـن الزوجـة علـى اعتبـار أن ذلـك مهـين أو لا يصـح،لأنه مقنـع أن الإنفـاق علـى البيـت واجـب علـى الرجـل بـين من هو متسامح مع عمل المرأة ولكن يشرط عدم الاختلاط[26].

المبحث الثاني

نشأة زبيدة بنت جعفر وأهم أعمالها

المطلب الأول

نشأة السيدة زبيدة بنت جعفر

أ–نشأتها:

في هذه الأرض من أجواء الجزيرة العربية،تلك الأرض التي رواها الصحابة الكرام بدمائهم وأقاموا عليها دين الله تعالى،هي هذه الأرض التي شهدت المعالم والملاحم التي كانت من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل وتمكن شرع الله فيها،في هذه الأرض التي رزقها الله كل أنواع النعيم والخير ابتداءً من نعمة الإسلام،منذ فتحها للإسلام الحق على أيدي صحابة النبي صلى الله عليه وسلم،الأبطال الفاتحين،ومرورا بعهد الراشدين الأربعة الكرام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين،وعصور الذين تبعوهم من الأمويين والعباسين،وحياها الله كل أنواع النعيم والخير،في هذه الأرض ولدت زبيدة بنت جعفر.

يقول ابن كثير: " إنها أم العزيز امرأة الرشيد وابنة عمه،وهي زبيدة بنت جعفر بن المنصور،العباسية الهاشمية القرشية، كانت أحب الناس إلى الرشيد،وكانت ذات حسن باهر وجمال طاهر،وكان له معها من الخطاب والجواري والزوجات غيرها كثيرا،و إنما سمت زبيدة لأن جدها أبا جعفر كان يلاعبها ويدللها ويرقصها وهي صغيرة يقول: " إنما أنت زبيدة لبياضها،فغلب ذلك عليها فلا تعرف إلا به،وأصل اسمها:أم العزيز،وكان لها من الجمال والمال والخير والديانة والصدقة والبر شيء كثير، وروى الخطيب أنها حجت فبلغت نفقتها في ستين يوما أربعة وخمسين ألف درهم،ولما هنأت المأمون بالخلافة قالت:"هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك،ولئن كنت فقدت ابنا خليفة لقد عوضت ابنا خليفة لم ألده،وما خسر من اعتاض مثلك ،ولا ثكلت أم ملأت يدها منك وأنا أسأل الله أجرا على ما أخذ،وإمتاعا بما عوض[27].

زبيدة بنت جعفر المنصور الهاشمية العباسية أم جعفر زوجة هارون الرشيد، تزوجها سنة 165هـ، وهي تفاخر بنسبها الهاشمي سائر نساء الرشيد لأنهن من أمهات الأولاد، لذلك كانت عنده في المرتبة الأولى وكانت نافذة الكلمة عند الرشيد،وهو يتبرك بمشوارها، وكانت لها مائة جارية يحفظن القرآن،ولكل واحدة ورد عشر من القرآن، وهي من فضليات النساء، وأعظم نساء عصرنا دينا وإصلاحا وجمالا وصيانة ومعروفاً.

وكانت أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة الملكة بالجواهر، ووضع لها الوشي الرفيع، وهي أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري، وأول من اصطنع لقباب من الفضة والأبنوس والصندل،وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج.

كانت زبيدة شديدة العصبية لبني هاشم،وفي صدرها حقد على البرامكة،وخاصة جعفر بن يحي الوزير، لأنه كان يحط من قدر ابنها الأمين، ويرفع من شأن أخيه المأمون مع أن أمه جارية، وما زاد من نقمتها عليه أنه حمل الرشيد على أن يبايع للمأمون بولاية العهد من ابنها الأمين، وكانت تحب أن تكون البيعة له وحده[28].

عاشت السيدة زبيدة 32 عاما بعد وفاة هارون الرشيد، وتوفيت في بغداد سنة216هـ الموافق 831م، بعد أن عاشت في ظل عبد الله المأمون يعاملها معاملة الأم، وكثيرا ما يلجأ إلى مشورتها في أمور الدولة ويقبل برأيها.

ب– أثار وأعمال السيدة زبيدة بنت جعفر:

إن من أهم آثارها حفرها للعين المعروفة بعين المشاش بالحجاج، وقصة ذلك أنها حجت عام 186هـ، فأدركت ما يعانيه أهل مكة في المشاق للحصول على ماء الشرب،فدعت خازن أموالها وأمرته أن يدعوا المهندسين والعمال ليبدؤوا الحفر، وليشق الطريق للماء في كل منخفض ورفع وسهل وجبل، مسافة أثنى عشر ميلا حتى يوصل الماء إلى مكة، وقد ظهر التردد على خازن الأموال لما تصوره من كثرة التكاليف،فأدركت زبيدة سبب تردده فقالت له بحزم: " اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً [29]. فعمل العمال وتم المشروع وبلغت تكاليفه مليوناً وسبع مئة ألف دينار.

يعد مشروع زبيدة مشروعا عظيما وخطيرا،وكان لها به دور بارز في تحريك الأحداث التاريخية،فتحته لضيوف الرحمان،والجيران بيت الله،ولقصاده من جميع بلاد الشام"[30].

كانت مشكلة المياه في مكة كبيرة،وتتفاقم أكثر مع موسم الحج وتوافد أبناء الإسلام إلى مكة لأداء فريضة الحج، وكانت المشكلة تتمثل في نقص المياه وشحها، لذلك قامت السيدة زبيدة بأعمال عظيمة تمثلت في آتي[31]:

- زيادة عمق بئر زمزم :كان بئر زمزم يمثل عمقه حوالي ثماني عشر ذرعا،وكان الناس يعتمدون عليه في تأمين حاجتهم من الماء،ومع كثرة الطلب عليه لم بيق فيه من الماء إلا القليل،فأمرت السيدة زبيدة بتعميق بئر زمزم تسع أذرع زيادة.
- حفر بركة زبيدة:يبدو أن تعميق بئر زمزم لم يجد في توفير الماء اللازم،إذا أمرت بحفر بركة،وأجرت لها عينا من الحرم،فجرى الماء،ولكنه كان قليلا لا يكفي لري أهل مكة،ففكرت في حل أخر بعد أخذ رأي أصحاب المشورة،فأشاروا عليها بجر الماء من الحل إلى الحرم،ووقع الاختيار على وادي حنين،وكان هذا الوادي ينبع من أسفل جبل شاهق يقع بين مكة والطائف يقال له"طاد".
- عين النعمان:قد قامت السيدة زبيدة بحفر عينا في وادي النعمان شمال عرفة،وقد أرادت بهذا الماء أن توفر سقاية الحجاج في عرفة وباقي المشاعر المقدسة،وكانت هذه العين تنبع من جبل الهدا.
- قناة جبل الرحمة: كانت هذه القناة تأخذ الماء من عين النعمان إلى جبل الرحمة،ومدت من هنالك قنوات فرعية،تصب مياهها في خزانات ثم أحواض وبرك،وكانت المياه في هذه الخزانات تلبي حاجات الحجاج والناس،وبعضها كان مخصصا لشراب الدواب.
- وقد أرادت زبيدة أن تسير مياه هذه القناة من بعد عرفة إلى منى،ومنها إلى مكة.

لقد كانت السيدة زبيدة من بناء الحضارة والمدينة،ومؤسسي الأمجاد والمفاخر،ومن الصالحات اللواتي قمن بأعمال لفائدة الإسلام،ومن المؤمنات اللواتي ساهمن بقسط عظيم في تأسيس صرح الحضارة العربية الإسلامية.

اهتمت زبيدة بطرق الحجاج من بغداد والكوفة إلى مكة والمدينة،وبدأ اهتمام زبيدة في بداية الأمر بتوفير برك وآبار وصهاريج مياه على طول الطريق الذي عرف فيما بعد باسم "درب زبيدة"،ثم بعد ذلك أقامت محطات ومنازل الراحة المسافرين،وألحقت ذلك بمساجد صغيرة على طول الطريق[32].

وتسهيلا لراحة الحجاج ولتوفير الماء لهم،قامت السيدة زبيدة بحفر البرك والآبار على طول الطريق بدءا من موضع الهيثم إلى الشقوق ثم بطان فالتناهي حتى الأجفر في إقليم نجد،ومنها إلى قروري وذات عرق وعندها تبدأ شعاب مكة،وكان الحجاج قبل ذلك يعانون من قلة الماء أثناء سفرهم،لذا قررت زبيدة حفر هذه البرك،لتسهيل الطريق على الحجاج،ورغم بعد المسافة لم تبال زبيدة بذلك ولم ينقص من عزيمتها وإصرارها شيء[33].

وهذا ما صرح به ابن جبير الأندلسي في رحلته إلى بلاد العرب في كلامه عن طريق مكة،وقد كانت حجته عام 579هـ،وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد إلى مكة من آثار زبيدة بنت جعفر،انتدبت لذلك مدة حياتها فألقت في هذه الطريق مرابع ومنافع تعم وفد الله كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن ولو لا آثارها الكريمة هي ذلك لما سلكت هذه الطريق[34].

و أكده الشاعر أحمد علي سليمان عبد الرحيم في قوله:

زبيدة حزت الذرى في الأصل والنسب ولا ... يا درة سطعت في أمة العرب

أزكي على الرحمن درتنا ... بل أكبر الدرة العصماء عن رغب

حسيبها الله من مدح يجملها ... فتلك اسمي من الأمداح والخطب[35]

المطلب الثاني

الحركة الأدبية والعلمية في زمان السيدة زبيدة

لم يكن دورا لسيدة زبيدة بغداد الأولى في عهد الرشيد مقصورا على دور الزوجة البارة المحبة لزوجها،أو دور الأم المربية الحنونة على ابنها فحسب، بل كان لها دور نشط ولمسات متميزة في الحركة الأدبية المزدهرة في بغداد في ذلك الوقت، وساعدها على ذلك ما تتمتع به من رأي وفصاحة وبلاغة، وثقافة عالية وإحساس مرهف،وكانت تنظم الشعر لتعبر عما بداخلها،ولم يكن ذلك بغريب عن عصر ازدهرت فيه الحركة الأدبية، ولاقي الشعر والأدب اهتمامين بالغين من جميع طبقات المجتمع في هذا العصر، وما القصيدة التي بعثت بها إلى الخليفة المأمون بعد مقتل ابنها دلالة واضحة على بلاغتها وفصاحتها، فقد ذكر أنه لما قتل ابنها الأمين،دخل عليها بعض خدمها فقال: ما يجلسك وقد قتل أمير المؤمنين محمد، فقالت ويلك وما أصنع؟، فقال: تخرجين فتطلبين بثأره كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان، فقالت اخسأ لا أم لك ! ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال؟ ! ثم أمرت بثيابها فسودت عليها ولبست مسحا من شعر ودعت بداوة وقرطاس وكتبت إلى المأمون:

لخير إمام من خير عنصر ... وأفضل سام فوق أعواد منبر

لوارث علم الأولين وفهمهم ... وللملك المأمون من أم جعفر

كتبت وعيني مستهل دموعها ... إليك ابن عمي من جفوني ومحجري

أتى طاهر لا طهر الله طاهرا ... فما طاهر فيما أتى بمطهر[36]

فلما قرأ المأمون شعرها بكى ثم قال:"إني أقول كما قال أمير المؤمنين علي طالب رضي الله عنه لما بلغه قتل عثمان:والله ما أمرت ولا رضيت، اللهم جلل قلب طاهر جزنا[37]. فقد استمالت زبيدة إليها الشعراء ومن عطفها عليهم ما حدث به عمر بن بانة.

الخاتمة:

كان للسيدة زبيدة دورا فعالا في خدمة الوطن والدين الإسلامي،كانت مثالا يقتدي بها في عهد المأمون،وكانت بمثابة رمز الداعم لفعل الخير والإحسان ومساندة الفقراء،وخدمة الإسلام والمسلمين.

ومن أهم النتائج المتواصلة إليها في هذا البحث هي كالتالي:

- اختلاف معاملة المرأة من عصر لآخر،حسب العادات والتقاليد المعروفة في ذلك العصر.
- اهتمام الإسلام بالمرأة اهتماما بالغا وذلك من خلال إعادة الحق لها وحسن معاملتها.
- كانت السيدة زبيدة من سيدات الدنيا وذخرا للإسلام والمسلمين.
- كما كانت من ربات الفضل والعطاء والمكرمات.
- كانت صاحبة خلق ودين وفكر وثقافة واسعة، ترغب دائما في فعل الخيرات، ومساعدة الآخرين.
- قامت زبيدة ببناء حائطا على الطريق من بغداد إلى مكة،وحفرت آبارا في كل مرحلة.
- كل الأعمال التي قامت بها السيدة زبيدة ابتغاء لوجه الله تعالى،ومن أجل أن تنال رضاه،وهذا ما جعلها تنفق الكثير والكثير من الأموال والنفقات على هذه الأعمال.

قائمة المصادر والمراجع :

***القرآن الكريم:**

1-المصادر والمراجع:

1-أحمد علي سليمان عبد الرحيم، سلسلة النقد الأسلوبي،السيرة الذاتية، سيرة زبيدة بنت جعفر، ط1.

2-أحمد علي سليمان عبد الرحيم، تحية شعرية للأميرة زبيدة بنت جعفر، ديوان السليمانيات، ط1.

3-باسمة كيال، تطور المرأة عبر التاريخ،مؤسسة عز الدين، بيروت،لبنان، 1981م.

4-علي عثمان، المرأة العربية عبر التاريخ، دار التضامن، بيروت، ط1، 1975م.

5-محمد فريد وجدي، المرأة المسلمة،دارسة نقدية لدعاة تحرير المرأة،أضواء السلف، بيروت، ط1999،1م.

5- مرتضى عياد، كيف المرأة، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط1.

2-المجلات والرسائل الجامعية:

7-بلال فتيحة،المرأة في الفكر الإسلامي المعاصر بين الشريعة والتطبيق،درجة الماجستير،طلية العلوم الاجتماعية ،جامعة وهران،2014م.

8-بن زيان مليكة،عمل الزوجة وانعكاساتها على العلاقات الأسرية،دارسة ميدانية،درجة الماجستير،كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية،جامعة قسنطينة.

9-حمد فهد حمد العازمي،مجهودات السيدة زبيدة أم جعفر في سقاية الحجاج وتمهيد الطرق إلى بيت الحرام،مجلة بحوث الأوسط،العدد السبعون،ديسمبر2021م.

10-نزار نجار،عين زبيدة عمل إنساني نبيل قامت به امرأة من أجل النحتاجين وأبناء السبيل،أدباء اقتصاديون.

11-وائل يوسف العتوم،مفهوم المرأة في الخطاب التقليدي والحداثي في المجتمع مدينة عمان.

التهميش:

1- محمد فريد وجدي،المرأة المسلمة، دارسة نقدية لدعاة تحرير المرأة،مكتبة الأضواء السلف، بيروت ط1999،1م، ص14.

[2]-المرجع نفسه، ص15.

[3]-المرجع نفسه، ص15.

[4]-مرتضى عياد،كيف تعرف المرأة،دار المحجة البيضاء، بيروت، ط1، 2008م ، ص119.

[5]-علي عثمان، المرأة العربية عبر التاريخ، دار التضامن، بيروت، ط1975،1م، ص19.

[6]- المرجع نفسه، ص19.

[7]-باسمة كيال، تطور المرأة عبر التاريخ، مؤسسة عز الدين، بيروت، 1981م، ص54.

[8]- علي عثمان، المرأة العربية عبر التاريخ، ص40.

[9]-سورة النحل، الأيات، 58-59.

[10]- علي عثمان، المرأة العربية عبر التاريخ، ص40.

[11]- سورة النساء، الأية 1.

[12]-سورة النحل، الأية 72.

[13]- ينظر: بن زيان مليكة، عمل الزوجة وانعكاساتها على العلاقات الأسرية، دراسة ميدانية، درجة الماجستير، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، ص43-44.

[14]- ينظر: بلال فتيحة، المرأة في الفكر الإسلامي المعاصر بين الشريعة والتطبيق، درجة الماجستير، طلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، 2014م، ص36.

[15]- سورة النساء، الأية 20.

[16]- سورة التكوير، الآيات 8-9.

[17]- ينظر: علي عثمان، المرأة العربية عبر التاريخ، ص82.

[18]- المرجع نفسه، ص 86.

[19]– المرجع نفسه، ص94.

[20]– المرجع نفسه، ص94.

[21]–ينظر: المرجع نفسه، ص 94-95.

[22]– المرجع نفسه، ص151.

[23]– المرجع نفسه، ص152.

[24]– ينظر: المرجع نفسه، ص153.

[25]– ميسون وائل يوسف العتوم، مفهوم المرأة في الخطاب التقليدي والحداثي في مجتمع مدنية عمان، درجة الدكتوراه،كلية الدراسات العليا، جامعة الأردنية، 2010، ص106.

[26]– المرجع انفسه، ص109.

[27]– أحمد علي سليمان عبد الر تحيم، سلسلة النقد الأسلوبي، السيرة الذاتية، سيرة زبيدة بنت جعفر، ط1، ص44.

[28]– المرجع نفسه، ص138.

[29]– نزار نجار، عين زبيدة عمل إنساني نبيل قامت به امرأة من أجل المحتاجين وأبناء السبيل، أدباء اقتصاديون، ص14.

[30]– المرجع نفسه، ص14.

[31]–حمد فهد حمد العازمي، مجهودات السيدة زبيدة أم جعفر في سقاية الحجاج وتمهيد الطرق إلى بيت الحرام، مجلة بحوث الشرق الأوسط، العدد السبعون، ديسمبر2021م، ص83.

[32]– حمد فهد حمد العازمي، مجهودات السيدة زبيدة أم جعفر في سقاية الحجاج وتمهيد الطرق إلى بيت الحرام، ص85.

[33]– المرجع نفسه، ص85.

[34]–أ حمد علي سليمان عبد الرحيم،سيرة زبيدة بنت جعفر،ص56.

[35]– أحمد علي سليمان عبد الرحيم، تحية شعرية للأميرة زبيدة بنت جعفر، ص13.

[36]– أحمد علي سليمان عبد الرحيم، سيرة زبيدة بنت جعفر، ص62.

[37]– المرجع نفسه، ص62.